المترجمون في بيت الحكمة

يعد بيت الحكمة نموذجًا رائعًا لعصر التألق الفكري والإبداع الإنساني حيث تحول إلى منارة للعلوم بما قدم للإنسانية من تراث فكري رائع وترجمات لثقافات البلاد والشعوب بكافة أطيافها، فاستفادت منها البشرية، وكان بيت الحكمة بذلك دليلاً على نهضة حضارية عربية حقيقية ولا نبالغ إذا قلنا: إنه كان أكاديميةً عالميةً توفر العلوم للمريدين ومنارةً تمنح الضوء للضالين.

وإذا كان العهد الأموي قد شهد محاولات جادة للترجمة بأمر من خالد بن يزيد بن معاوية، ولكنها اقتصرت على العلوم العملية كالصناعة والطب والنجوم. ثم جاء العهد العباسي فبلغت الترجمة شأوًا عظيمًا، وامتدت إلى العلوم العقلية كالمنطق والفلسفة والهندسة وغيرها، فكانت الترجمة بذلك مدرسةً كبيرةً لا يضيرها موت فرد أو أفراد منها كما كان يحدث في عهد الدولة الأموية.

لقد كان العصر العباسي بداية ازدهار الحضارة العربية، فازدهرت العلوم والآداب، واهتم الخلفاء بالعلم والمعرفة، وكان من بين هولاء الخلفاء أبو جعفر المنصور الذي ترجمت في عهده كتب الطب والفلك والهندسة والآداب، وكانت تلك الكتب تحفظ في قصر الخلافة ببغداد، حتى جاء هارون الرشيد فقام بإخراج المخطوطات والكتب القيمة التي تم تخزينها في قصر الخلافة ووضعها في دار فاخرة أسماها بـ(خزانة الحكمة) تقديرًا لرسالتها. وكان هارون الرشيد مغرمًا بالعلم والمعرفة، لدرجة أنه كان يقبل الجزية كتبًا. بدلاً من تقديمها على شكل أموال، وهذا يدلنا على مدى عناية الرشيد بالكتب وشغفه باقتنائها، ولا أدل على ولع الرشيد بالكتب غير أن عدد الكتب أيامه في بيت الحكمة بلغ المليون كتاب.

وما إن جاء عهد الخليفة المأمون حتى تطورت خزانة الحكمة، فنمت وازدهرت وتحولت إلى أكاديمية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وكان هذا سببًا في تغيير اسمها لتصبح (بيت الحكمة)، إذ أصبح هناك أماكن للدرس، وأماكن لتخزين الكتب، وأماكن للتأليف، وجلب المأمون الكتب من كافة أصقاع الأرض، من الهند وبلاد الروم والفرس، وجمع المأمون في بيت الحكمة أعظم العلماء والمفكرين والمترجمين، وأغدق عليهم العطاء والأموال.

وكانت أهم دوافع الترجمة في العصر العباسي أن العرب قد أوغلوا في الحضارة وهي تستند إلى العلم، فالتمسوه عند أهله من أصحاب الحضارات. وكان المترجمون في العادة يجيدون اللغة التي ينقلون عنها إجادتهم للغة التي ينقلون إليها مع إلمامهم التام بموضوعات ترجماتهم. وكان أغلبهم يلتزمون الدقة ويتوخون الأمانة فيما ينقلون. فكانوا في العادة يحرصون على أن تكون تحت يدهم نسخ الأصل الذي ينقلون عنه وترجماتها في غير العربية - السريانية - ليقابلوا بين بعضها والبعض الآخر. وكانوا يقسمون الجمل إلى بنود وفصول وفقرات حتى يتيسر نقل معانيها إلى العربية في وضوح لا يحتمل اللبس، كما كان يفعل ابن الأشعث فيما يروي ابن أبي أصيبعة. وشروحهم للأصل تشهد بأنهم كانوا على إلمام دقيق بالتعبيرات الدارجة والمصطلحات المألوفة في اللغة التي ينقلون عنها، وإن بدا أن بعض المترجمين كانوا على عكس هذا يتوخون الترجمة الحرفية. وقد أدى اختلاف التراكيب في اللغات وعدم تكافئ الألفاظ فيها إلى غموض المعاني في الترجمة العربية أحيانًا. ولكن أكثر الترجمات التي جرى أصحابها على هذا النهج قد قام مترجمون ممتازون بإصلاحها أو إعادة ترجمتها. وإذا كان ابن البطريق مثلا قد تصدى للترجمة عن اليونانية وهو لا يجيدها برغم تمكنه من اللاتينية؛ فإن إسحاق بن حنين قد نهض بإصلاح أو إعادة ترجمة ابن البطريق من مؤلفات جالينوس؛ بل لقد كان حنين يعيد ترجمة ما سبق له أن نقله إلى العربية في صباه، وفعل في ترجمات اصطفان بن باسيل مثل ما فعل في ترجمات ابن البطريق، وقد مكنه من ذلك أنه حنين كان يجيد ثلاث لغات غير العربية وهي الفارسية واليونانية والسريانية. وكان حنين بشهادة المؤرخين جيد الأسلوب واضح المعنى.

وتزخر كتب التراث العربي بأخبار المجيدين لأكثر من لغة في ظل الدولة العربية حيث تعلم كثيرون من العرب لغات كالفارسية والسريانية فأجادوها وأحسنوا الأداء بها. وكان سخاء الخلفاء وأهل اليسار من محبي العلم في معاملة هؤلاء المترجمين كبيرًا، إلى حد أن حنين بن إسحاق كان يتقاضى وزن ترجماته ذهبًا – وقيل: إنه كان يكتب ترجماته على ورق سميك ثقيل الوزن، ويكبر الحروف ويوسع ما بين الأسطر حتى تعظم مكافأته من الذهب - وكان هذا خليقًا بأن يغري المترجمين بالتسرع في الترجمة، ولكن هذا لم يحدث في العادة. ويذكر ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء أن الخليفة المتوكل جعل لحنين بن إسحاق كُتابا نحارير عالمين بالترجمة، يترجمون بين يديه، وهو يتصفح ما ترجموا، وأهداه ثلاث دور من دوره كاملة التأثيث، وثلاثة خدم من الروم، وأقطعه وأهله الإقطاعات وخلع عليهم الخلع، وجعل له خمسة عشر ألف درهم راتبًا شهريًا. وتذكر المصادر أن

بختيشوع بن جبريل (870م) قد وصف للمتوكل دواءً في إحدى وعكاته فأمر له بثلاث مئة ألف درهم وثلاثين تختًا من الثياب، وبتشجيع من الخلفاء كان لابن داود المعتزلي - مستشار المأمون والمعتصم والواثق- ندوة كبيرة يختلف إليها كبار المترجمين والأطباء.

وارتبطت أسماء مترجمين ومؤلفين بأسماء بعينها من أصحاب العطايا الذين كانوا يمولون ترجماتهم وأبحاثهم كارتباط اسم إسحاق بن حنين بالقاسم بن عبد الله وزير الخليفة المعتمد، وترجم قسطا بن لوقا البعلبكي اليوناني الأصل كتاب هيرون في ((علم الحيل)) لصالح الخليفة المستعين، وترجم الجامع في الدخول إلى علم الطب لإبراهيم بن المدبر، وألف رسالة في ((الفرق بين النفس والروح)) تمت ترجمتها إلى اللاتينية. كما جند كبار الأطباء مثل يوحنا بن ماسويه وبختيشوع بن جبريل بن بختيشوع المترجمين، وأغدقوا الأموال والخلع عليهم لينقلوا لهم كتب الطب اليونانية إلى العربية، حيث نقل حنين بن إسحاق ليختيشوع كثيرًا من كتب جالينوس الطبية.

وهكذا انتقل إلى تراثنا العربي تراث الأمم المتقدمة المتحضرة - ولا سيما فارس والهند واليونان - واتصلت هذه الروافد كلها بتراثنا الأصيل وتفاعلت معه في ضوء خبرات العرب الحسية وتأملاتهم العقلية. وكان منها ذلك التراث العلمي الحافل بوجوه الأصالة والابتكار. وكان يقوم بالترجمة عادة في العصر العباسي خاصة - جماعات من المترجمين، يشرف على كل منها رئيس يراجع أعمالهم ويصحح أخطاءهم، ويقف وراء حركتهم الخلفاء والأمراء وأهل اليسار من محبي العلم، يغذونها بالمال ويتعهدون أهلها بالرعاية والتقدير.

ويتمثل ذلك خاصة في مكتبة بيت الحكمة التي يقال: إن الرشيد أنشأها وأن المأمون قد تعهدها ونماها. وكانت تضم مترجمين من اليونانية منهم يوحنا بن مساويه، ومن الفارسية منهم ابن نويخت. وللمترجمين رئيس ومساعدون، ومع هؤلاء نساخ وعمال ومجلدون.. وللمكتبة مدير يشرف مع معاونيه على شؤونها.

لقد كانت الترجمة حركة أمة في مطلع العصر العباسي واستمرت حتى آخر القرن العاشر. ومرت الترجمة فيما يقول سانتيلانا في محاضراته بالجامعة المصرية عام 11-1910م بثلاثة أدوار :

في الدور الأول من أدوار الترجمة السالفة الذكر تم نقل مؤلفات أرسطو وشروح الإسكندريين عليها، وبعض مؤلفات أفلاطون وأهم كتب جالينوس في الطب. وترجم في الجملة أهم ما وصل إليه العقل اليوناني في العلم والفلسفة. وترجم ابن المقفع كليلة ودمنة من الفارسية. كما نقل غيره «السند هند» من الهندية، ومنطق أرسطو، وكتاب المجسطي في الفلك. ومن أشهر المترجمين في هذا الدور جورجيس بن جبريل ويوحنا بن ماسويه وابن المقفع. وفي هذا الدور اتصلت المعتزلة بالكتب المترجمة فالنظام عرف أرسطو وقرأ بعض كتبه في الفلسفة، فتأثرت أبحاثهم بالمنطق، وتكلموا في الطفرة والجوهر والعرض وغيره.

وفي الدور الثاني من أدوار الترجمة كان أشهر مترجميه يوحنا بن البطريق، وقد ترجم الكثير من كتب أرسطو، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب. وفي هذا الدور ترجم هؤلاء المترجمون أهم الكتب اليونانية في كل فن، وأعيدت ترجمة المجسطي لبطليموس في الفلك، والحكم الذهبية لفيثاغورث، وعدة مصنفات في الطب منها تصانيف لبقراط وجالينوس، ومحاورات طيماوس والسياسة المدنية، والنواميس لأفلاطون، والمقولات لأرسطو. وكل ذلك ترجم على يد حنين بن إسحاق ومدرسته.

أما الدور الثالث من أدوار الترجمة فكان من أشهر مترجميه متى بن يونس وسنان بن ثابت بن قرة ويحي بن عدي وابن زرعة. وأهم ما ترجموه إلى العربية كانت الكتب المنطقية والطبيعية لأرسطو وتفسيرها، كما يروي سامتلانا في محاضراته، وابن النديم في الفهرست وابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء والقفطي في أخبار الحكماء جرجي زيدان في التمدن العربي.